

القطيف زربية الشرق الجزائري

د.حنفي عائشة

أستاذ محاضر - معهد الآثار - جامعة الجزائر 2

تعد صناعة النسيج بإجماع آراء الباحثين من أقدم الصناعات التي عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ، و كانت وليدة حاجته في وقاية نفسه من العوامل الجوية كالبرودة و الحرارة،لذا لجأ إلى البيئة ليستعمل منتجاتها لصنع كساء ملائم يحميه من تلك العوامل و اهتدى إلى نسج الخيوط الصوفية، فصنع ما احتاج إليه و استخدم الإنسان المنسوجات في شؤونه المختلفة، و لم يشأ أن يقف عند حد المنفعة بل عمل على أن تكون إلى جانب وظيفتها الأساسية أثرا فنيا ترتاح له العين لرؤيته فصبغها بألوان مختلفة.

و تعد الجزائر بما تزخر به من موارد في المواد الأولية ، مركزا لصناعة الزرابي التقليدية من خلال الصوف الذي يستخلص من جز الغنم يضاف إلى ذلك الوبر، و قد احتفظت النساء بعادة نسج الصوف إما لسد حاجيات العائلة أو للتجارة:الثياب،الزرابي،الأفرشة، الأغطية و الفليج لصناعة الخيام..

يحتل النسيج بصفة عامة وصناعة الزرابي بصفة خاصة المرتبة الأولى في كل الشرق الجزائري مقارنة مع الصناعات التقليدية الأخرى، وذلك منذ العصور الأولى وتداولت من جيل إلى جيل محافظة على أشكالها القديمة البدائية مع اضافة لمسة جديدة عليها من فترة لأخرى إلى أن أصبحت على ما هي عليه حاليا.ففي كل بيت وتحت كل خيمة، نجد النساء والفتيات منهنكات يوميا بعمل الصوف ، وبالتالي يتعرفن على كالعادات وتقاليد المنطقة، فمنذ سن مبكرة يستطعن التعرف على أجمل الصوف، كيف يفرزنه ويغسلنه ويغزلنه بمهارة ودقة ، فينسجن أجمل البرانس والخيم وخاصة الزرابي وذلك لسد حاجياتهن.

لقد عرفت منطقة الشرق الجزائري ،خاصة المنطقة المحددة من الشمال بالخط الممتد من برج بوعريريج إلى سوق أهراس إلى غاية وادي سوف متجهين نحو سطيف. بصيتها في صناعة الزرابي التي تغطي مساحة كبيرة و متنوعة بجبالها و أراضيها الخصبة و مراعيها المتعددة و سكانها ذوو مستوى معيشي

متباين. ففيهم الرجل المنتجعون عند النمامشة¹ و المعاضيد² و الحضر عند الحراككة³ و القصوريين عند السوفييين⁴.

فالقاسم المشترك بينهم رغم الاختلافات المتعددة ، هي تقاليد حرفية ترسخت منذ القدم و التي صبغت باللمسات المشرقية دون أن تفقد أصالتها و هذه التقاليد نجدها في تبسة و خنشلة و بابار و مسكيانة و وادي سوف.

إن الطابع الشعبي لفن نسج الزرابي بالمغرب الأوسط يجعل منه فنا أصيلا إذ يعتبر أساسا فن عائلي.

تنجز القطع بأكثر عناية لصالح الأشراف والأغنياء، كما لا تخلو بيوت العائلات المرموقة هي الأخرى من المنسوجات الجميلة.

لم يقتصر النسيج على النساء فقط كما يتصوره البعض، بل اشتغل الرجال منذ عهود بعيدة بنسج الزرابي، وتميز المغرب الإسلامي بهذه الميزة وخاصة الجزائر، التي حافظت على هذه التقاليد في وسط وجنوب شرق الجزائر، حيث لا يزال عدد كبير من النساجين الرجال المعروفين بالرقاميين. تتوارث مهنة الرقام بالنامامشة والحراككة والسوافة أبا عن جد إذ تتالت أجيال من النساجين على هذا العمل، تختلف فيما بينها من حيث الموهبة.

إن الإبداع والتحكم في تقنية النسيج من اختصاصات الرجل رغم مشاركة المرأة في عمل الزربية وبذلها لمجهود كبير، فهو الذي يربط العقد ويقوم بالتركيب ويعرف الشكل النهائي للزربية لأنها من تصوره، يستعمل المواد التقليدية والأشكال المعروفة غير أنه يركبها بشكل جديد ومبدع، ويحاول الرقام بطريقة أو بأخرى الخروج عن الروتين وهذا بتنويعه للأشكال.

ينجز الرقام عادة نسيجه تحت خيمة من خيام شريف من أشراف المنطقة أو المنطقة المجاورة، حيث يتم الاتفاق بين الطرفين حول حجم القطعة والأجر ويبقى الرقام بضيافة صاحب الزربية إلى أن ينتهي من عمله، يتطلب إنجاز زربية طولها مثلا ستة أمتار وعرضها مترين شهرين من العمل المتواصل، وقد يعمل في المعدل خمس زرابي سنويا بعضها في بيته وأخرى في ضيافة صاحب القطعة.

¹يعتبرون من الرجل المتنقلين بحثا عن المراعي لماثبيتهم و يعتبرون من أهم مربي الخرفان و يعرف هذا النوع المربي باسم "رمبي" يتميز بصوف ناعم و قصير أو طويلا قليلا و يحتوي على قليلا من الشعر و الوشح و اختصت المنطقة بالصباغة مما أهلها لتحصل على بعض الجوائز العالمية. أنظر، TII, Les Arts populaires en Algérie, Golvin(L), Alger 1953,p 235

²كان سكان القبيلة من الرجل يعودون إلى قبائل العجيسة البربرية المنتمية إلى القبائل الصنهاجية. نشأت هذه القبيلة في منطقة تجاوزت الحدود القديمة لقلعة بني حماد تتجمع هذه القبيلة في جزاين، الأولى بجوار منطقة القرقور، بينما الثاني يتصل مع حدود الحضنة المتأثرة بالعادات البدوية العربية حيث عرفت القنوم الهلالي إليها، و بالتالي تعربت القبيلة كلية ولم يعد سكانها يتحدثون الأمازيغية و لا يتذكرونها. انظر ، Robert(A), "Monographie de la commune des Maadid » in Bulletin de la société Géographique d'Alger et de l'Afrique du Nord,t3,1928,p402.

³يعود أصلها إلى عائلة بربرية كبيرة تعرف بالهواره و تعرف كذلك بالشاوية المستقرة بجبال الأوراس و لكن يدخل بني سليم إلى المنطقة انضم العنصر العربي إليها.

⁴يعتبر من الحضر أو من المنتجة لأن رحلاتهم تتحدد في البحث عن الكل فقط و تعتبر قبيلة الرباعية أهم القبائل المنتجة في سوف و كانت تربطهم علاقات تجارية مع النمامشة.

يتعلم الطفل عادة ضمن عائلته فن النسيج عن عمر يناهز الثانية عشر فيساعد أباه مدة عامين، إذ لا ينجز إلا بعض الخطوط من الغرز وفق توجيهات أبيه ويحفظ عن ظهر قلب الأشكال المعروفة وبالملاحظة والإتقان يستوعب مواضيع التركيب وعندما يحصل على الكفاءة، يبدأ بدوره في التركيب تحت نصائح معلمه.

لقد عرفت هذه المناطق العديد من الرقّامين المعروفين ومعظمهم يقيمون في دوار مقادة وعرفت قرية بابار " أيضا برقّامياها" فقد كان الرجل يزورونها في تنقلاتهم إما للتوصية عن زربية أو لأخذ ما جهز لهم. يقال أن بايات قسنطينة كثيرا ما كانوا يأخذون زرابي من النمامشة خاصة من دوار مقادة، وكان شيخ الدوار يجمع بنفسه المنسوجات ويقدمها كضريبة لباي قسنطينة وهناك من يقول أن هذه الزرابي كانت بمثابة هدايا تعبيراً عن الولاء وأن الباي كان في المقابل يدفع ببعض القطع النقدية.⁽⁵⁾

لم تعرف منطقة سوف سوى رقّامين اثنين متمكنين في إبداع الزرابي ويقال أنهم من أصل عثماني، فبعد أن عملوا بمنطقة الشرق الجزائري ونشروا بالمنطقة أشكال ونماذج عثمانية، انتقلوا إلى سوف وبالضبط بمنطقة حبة ، وذلك في منتصف القرن الثالث عشر هجري / التاسع عشر ميلادي، فاستقروا بها ونشروا نماذجهم وعلموا الشباب المهنة، و لا يمكن اعتبارهم رقّامين ، لأنهم لا يعملون إلا وفق نماذج يتبعونها و الرقّام كما ذكرنا أنفا هو الذي يبدع وينجز الزرابي اعتمادا على ذاكرته وفق نموذج مرسوم في مخيلته دون اللجوء إلى رسم على الورق. استطاعت النساء باحتكاكهن بالرقّامين أن يكتسبن خبرة واسعة في رقم الزرابي فاصبحن بدورهن رقّامات يشكلن زخارف زرابيهن حسب مخيلتهن وأحاسيسهن. وكانت نساء النمامشة والحراكتة والسوافة وحتى المعاضيد يقمن بتحضير الصوف وهذا بتمريرها على كل المراحل اللازمة لأن تكون جاهزة وصالحة للنسج.

عرفت هذه المناطق بانتاج اشكال متنوعة من الزرابي، و لكن سنركز في هذا البحث عن زربية تشترك فيها كل المناطق و المعروفة عند الرجل و المنتجة و القصوريين و هي القطيف.

القطيف زربية ثقيلة، طويلة جدا وضيقة نوعا ما، أبعادها المعتادة ستة أمتار طولا ومتر وثمانين سنتيمتر عرضا ونادرا ما يصل إلى 2م، غرز هذه الزربية في شكل حلقات وأهدابها طويلة يتراوح سمكها من خمسة إلى سبعة سنتيمتر، لا تظهر زخرفتها إلا من الخلف، تكون مواضيع التركيب بسيطة، فلا نجد جامات⁶ بل تنتظم عناصر الزخرفة وفق إيقاعات مختلفة.

⁽⁵⁾ Golvin L, Les arts populaire ; P 242.

⁶ هو شكل زخرفي عبارة عن معين عرف استعماله بالأناضول بتركيا

يعتبر القطيف من المستلزمات الضرورية في الخيمة، ففي الشتاء يفرش على الوجه الذي به الصوف أما في الصيف فيقلب من الجهة الأخرى. يختلف وزن القطيف فقد يصل إلى خمسين كيلو غرام وحتى سبعين كيلو غرام بالنسبة للقطيف ذو مساحة تقدر بعشرة متر مربع. أما عن الغرز فتستعمل فيه عشرين غرزة في الدسم المربع في الاتجاهين.

يعتبر كل من القطيف والفراش العموري (الأطلس الصحراوي) أثاث يستعمله الرحالة في خيمهم ولهما نفس المقاسات، غير أنه هناك اختلاف مذهل بينهما، فالفراش يحفظ من خلال زخرفته وفي أطرافه على الطابع المغربي المحظ، لكن غرزه معقودة ومقطعة حسب تقنية كيرودهس بآسيا الصغرى⁷، في حين إذا كانت العناصر الزخرفية للقطيف فيها ما هو تأثير عثماني، فإن التقنية أصلية ومحلية بحيث تعقد الصوف على السدة في شكل حلقات طويلة لا تقطع في الغالب ولا تسوى، وما نلاحظه هو عدم وجود هذه الطريقة في المشرق. تختلف التقاليد الحرفية في نقاط أخرى، فرقام جبل عمور مثلا لا يعمل كثيرا حيث يمثل عمله في إدارة سيرورة الرسم بجلوسه وراء المنسج بينما الرقام النموشي أو الحراكتي أو السوفي وفي منطقة المعاضيد، يعقد الصوف ويضغط بمشطه على العقد ثم يترك المجال للنساء لكي يمررن خيوط الحبكة ونسج الحواشي.

والسؤال الذي يمكن أن نطرحه على أنفسنا هو هل كان هناك القطيف قبل تعريب المنطقة أي قبل الدخول الهلالي لها؟

يمكن اعتقاد ذلك إذ أن النساج يحاول دائما تحوير الأشكال النباتية ودمجها مع النماذج ذات الطابع المحلي. وللتذكير، فقد وجد في منطقة تبسة زرابي ثقيلة جدا تعود إلى القرن السادس الهجري - الثاني عشر ميلادي، يمكن أن يكون هو القطيف هذه الزربية الضيقة والطويلة والسميكة جدا، بحيث تصل حلقاتها الصوفية إلى حوالي سبعة سنتيمتر، فهي فراش مريح وتحفة فنية في نفس الوقت.

⁷ نسبة إلى بلاد الأناضول وهي من أقدم العقد المستخدمة في صناعة الزرابي وتعرف أيضا بالعقدة التركية. اشتهرت كثيرا في العهد العثماني ويبدو أنها هي أقدم ما استخدم في الزرابي فقد ثبتت أنها العقدة نفسها المستخدمة في زربية "بزيك" الشهيرة بأنها أقدم الزرابي في العالم قاطبة والتي اكتشفتها بعثة تقنية سوفيتية يرأسها "رودنكو" في حفائر تمت عام 1949 في بعض مقابر رؤساء أنست قرب قرية بزيك في بلاد منشورية المناخمة لحدود الصين، والتي ترتقي حسب التحليل الكربوني الرابع عشر إلى منتصف الألف الأول قبل الميلاد. والعقدة التركية التي تلتف الوبرة أو الخصلة الواحدة فيها حول خيطين متجاورين من السدة بحيث تجمع بينهما من أعلى ثم يدور طرفاها في مستوى الرقعة وراء هذين الخيطين، ثم يجتمعان فينقدان بينهما صاعدين معا ومتلامين إلى وجه الزربية.

أشكال تركيبات القطيف:

لا يحتوي القطيف في الأصل على أشكال ميداليات ولا جامات فهي تركيبة بسيطة تتمثل في إطار أو إفريز⁸ واحد فما أكثر وقد تقتصر في بعض الأحيان على شريط بسيط أو صف من الزخارف المتمثلة في أشرطة متوازية.

يقوم الرقام غالبا بتقسيم زربيته إلى أقسام مربعة الزوايا: مربعات أو مستطيلات مزينة برسوم هندسية أو زخارف تشبه إلى حد ما الزخارف المشرقية. إلا أننا نلاحظ في بعض النماذج، استعمال شكل الميداليات الشبيهة بالزرايبي العثمانية بينما تشبه تلك المقسمة إلى أجزاء، الزرايبي البدوية التونسية وبالخصوص زرايبي " الحمامات " و " المهدية " ⁽⁹⁾ كما نجد تلك التي تحتوي على ميداليات مركزية والتي تذكرنا دائما بنموذج الزرايبي العثمانية ⁽¹⁰⁾.

بينما تقترب التركيبة المجزأة إلى مستطيلات، من النسيج المسطح خاصة الكليم¹¹، والحنبل، والمرقوم القيرواني، والدراقة التي هي عبارة عن منسوجات ذات غرز معقودة طويلة تسمح بالفصل بين الرجال والنساء في الخيمة، وهنا تظهر براعة الرقام بحيث يعرف دائما كيف يلائم بين التقنية والمادة المستعملة فهو لا يشكل القطيف بنفس الطريقة التي ينسج بها الدراقة.

سلم الألوان:

لم تستعمل نساء هذه المناطق على غرار المناطق الأخرى من الوطن إلا الألوان النباتية أو الحيوانية في بادئ الأمر. تشبه ألوان القطيف سلم ألوان الفراش العموري، إذ غالبا ما يظهر على شكل ثنائي اللون في وقت واحد: الأحمر والأزرق مزخرف بنقاط خضراء، صفراء وبرتقالية.

تؤطر الرسومات دائما باللون الأبيض الذي يظهر خاصة من الجانب المحفوف للقطيف، لأنها تقطع دائما اصغر من تلك الملونة. أما الزخارف أو الأشكال ذات اللون الأزرق الداكن، فهي بعض الأحيان

⁸ الإفريز هو شريط زخرفي بارز يُشكل حسب صورة معينة على الزربية و يمكن أن يكون مزين بأشكال نباتية ومنمقة أو هندسية، وغالبا ما يتكرر على امتداد أجزاء الزربية.

⁽⁹⁾ Poinssot et Revault, Tapis Tunisien, T II, Paris, 1934, P 45.

⁽¹⁰⁾ Ibid.

¹¹ هو نسيج من النوع المحفوف يعرف بالحنبل في المغرب العربي و بالكليم في المشرق العربي.

بخيوط صفراء تبرز على أرضية حمراء داكنة، والمؤكد أن سلم ألوان القطيف القديم، لم تكن غنية أكثر من هذا ومع ذلك فإن هذه الزرابي لم تكن عادية ولا أشكالها مملة.

كان الرقام في هذه المناطق يتجنب دائما الفراغ الشيء الذي يزعج الناظر لذا يفعل كل ما في وسعه في زخرفة زربيته بطريقة منظمة، فبواسطة مساحات صغيرة ملونة بالأزرق أو الأخضر، يملئ الفراغ بحيث يتماشى مع الأرضية بالضبط، كما أن الرقام الماهر يحاول دائما تنويع الألوان لنفس الزخرفة المكررة، ويحسن تجزئة وتقسيم الألوان على الزربية، فتتناغم الألوان، يبعد كل أنواع الملل.

تعتبر دراسة القطيف بالشرق الجزائري النموذج الثاني من الزرابي الموجهة للخيمة، غير أنها لم تمكننا بما فيه الكفاية من مقارنتها مع منسوجات جبل عمور الفراش الموجه للخيمة.

ما نلاحظه هنا هو أن الزخرفة الهندسية ليست مستبعدة ومؤكدة استعمالها، ولكن ما أخذ عن الفن الشرقي ليس بالكثير ليطغى على التركيبة العامة أو الموضوع العام للزربية التي بقيت بصبغتها المحلية الأصلية.

لقد أعطينا بعض النماذج من قطيف النمامشة، الحراكطة، السوافة وحتى المعاضيد وقد لا يظهر الاختلاف الأساسي بصورة واضحة، فقد يحصل خلط في بعض القطع ويكون مصدرها غير موثوق منه ولا يستطيع تأكيده إلا الرقام، لأنه الوحيد الذي يمكنه أن يميز زرابي منطقة عن الأخرى انطلاقا من عناصر زخرفية معينة تستعمل في منطقة أكثر من الأخرى، فالحراكطة مثلا يفضلون استعمال المربعات المسننة أكثر من المناطق الأخرى، وما لاحظناه أيضا هو أن القطيف السوفي يشبه إلى حد كبير القطيف التونسي.

ومع كل هذا فإن أصل القطيف يبقى دائما غامضا، فلكونه أثاثا ضروريا في خيمة الرحالة لا يحل الإشكال الخاص بأصله، خاصة وأن كل ما كتبه المؤرخون ليس دقيق، باستثناء نص ابن الياقوت الذي يسلط بعض الأضواء فبفضله علمنا أن بالجزائر كانت هناك زربية ثقيلة في القرن السابع هجري / الثالث عشر ميلادي¹² ربما كان هو القطيف وهذا في المناطق التي تهمنا، لكن هذا لا يعني أن هذه المنسوجات محلية، و عليه هل يمكن لنا القول أنها دخلت مع بنو هلال إلى المغرب الإسلامي؟

ليس هناك شك أنهم أدخلوا بعض التعديلات على فن الخيمة وإلا كيف نفسر وجود تلك الزخارف المشرقية على القطيف، أما التقنية فلم نستطع من خلال معلوماتنا التأكد إذا ما عرفت هذه التقنية المتمثلة في الغرز ذات الحلقات والتي يتميز بها قطيف المناطق المذكورة في المشرق حاليا ام وجدت في السابق، والسؤال الذي يمكن أن نطرحه هو هل هي نفس تقنية الزربية التي ذكرت من طرف المؤرخين القدماء؟

¹² ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله)، معجم البلدان، بيروت، ج 4، 1404، 4/1984، ص 378.

لا يوجد القطيف عامة في الأسواق عكس الفراش، لأن الأول ينجز بطلب من الزبون والثاني عند الحاجة فقط وبالتالي لا تتم التعاملات إلا مع الرقام الذي يحدد شروطه، لذا يتم العمل بدوار الزبون، حيث ينتقل الرقام إلى هناك أو بدوار النساج نفسه وهذا ما هو مألوف بمنطقة بابر بخنشة مثلاً.

ومن هنا، يتبين لنا أنه رغم وجود بعض الزخارف المستوحاة من المشرق إلا أن التقنية محلية وبالتالي فإن الرقام استعمل كل أحاسيسه ومخيلته لينسج هذا النوع من المنسوجات الموجه إلى الرحالة بالدرجة الأولى.



قطيف منطقة المعاضيد



قطيف منطقة النمامشة



قطيف منطقة الحراكتة



قطيف منطقة وادي سوف